

حطين: نقطة التحول وإنهاء هيمنة الفرنج في بلاد الشام



This work is licensed under a
Creative Commons Attribution-
NonCommercial 4.0
International License.

صهيب عثمان أبو حويج

نشر إلكترونيًا بتاريخ: ١٩ أغسطس ٢٠٢٦ م

الكلمات المفتاحية: معركة حطين، صلاح الدين الأيوبي،
بيت المقدس، الفرنج، بلاد الشام.

Abstract

The study introduces Sultan Salah al Din al Ayyubi, beginning with his birth and upbringing, then tracing his military career up to his rise to power in Egypt. It explains how he succeeded in unifying Greater Syria under his rule and state, before addressing his death and describing the condition of Muslims and those close to him upon hearing the news of his passing.

The study also examines the events of the Battle of Hattin and how it paved the way for the Islamic conquest of Jerusalem, as well as the other cities in Greater Syria that were liberated by Salah al Din al Ayyubi one after another.

الملخص

تناولت الدراسة التعريف بالسلطان صلاح الدين الأيوبي؛ إذ بدأت بمولده ونشأته مرورًا بحياته العسكرية ووصوله إلى حكم مصر، وكيف استطاع ضم بلاد الشام إلى ملكه ودولته، ومن ثم عرج الباحث على وفاته، وكيف كان حال المسلمين والمقربين منه عند سماع خبر موته. وتناولت الدراسة أحداث معركة حطين وكيف أنها مهدت الطريق الإسلامي لفتح بيت المقدس، والمدن الأخرى التي حررها صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام بلدًا تلو الآخر.

وتحدث البحث عن كيفية استرداد سلاطين الدولة المملوكية للمدن الإسلامية في بلاد الشام من أيدي الفرنج وبالأخص في عهد السلطان الأشرف خليل الذي أسقط آخر معاقل الصليبيين صور وحيفا، وكيف قُضي عليهم وإرجاع بلاد الشام إلى حظيرة الإسلام والمسلمين سنة ٦٩٠هـ. كما هدفت الدراسة إلى إبراز تاريخ السلطان صلاح الدين الأيوبي وأخذ العظة والعبرة منه ومن حياته، وتوضيح جهوده في تحرير بيت المقدس، ولفت الأنظار إلى هذا القائد الفريد.

بلاد الشام، في ملحمة هي من الأشرس على مر التاريخ فما أشبه مُحْتَل اليوم بِمُحْتَل الأمس، فإن التاريخ في كل مره يُعيد نفسه.

إن كثيراً من العظماء الذين ظهوروا في التاريخ كانوا نتاج عوامل مساعدة عملت على صقل مظاهر عظمتهم، ومن أكبر الشخصيات التي تركت أثراً باقياً في حياة الأمة، الذي لا نزال نلنمسه إلى وقتنا الحاضر شخصية صلاح الدين الأيوبي، هذه الشخصية التي ما زلنا إلى حد اليوم نريد منها نسخة ثانية تُعيد للإسلام هيئته وعظمته، وهذه الشخصية عظيمة لدرجة أنها حولت مجرى التاريخ الإسلامي والعالمي. وإذا ذكر أعلام الإسلام في الحرب فصلاح الدين الأيوبي بلا ريب في مقدمتهم، ومن أعظمهم، فهو الذي لُقّب بـقاهر الصليبيين وهو الذي فتح القدس التي استعصت على الكثير من قبله.

وما أحوج أمتنا العربية والإسلامية إلى معرفة صناعة النصر التي اعتمد عليها صلاح الدين، والتي يغفلها ويجهلها الكثير من الشباب، وهي أن السلاح والقوة العسكرية ليست إلا المرحلة الأخيرة من مراحل صناعة النصر، بل إن النصر يأتي من دون الحاجة لحمل السلاح أحياناً. وأهل غزة حالياً أعطوا لنا نموذجاً للجهاد في سبيل الله، ومقاتلة العدو بإيمان كبير وبأقل الإمكانيات.

إن شخصية صلاح الدين مُعجزة كبيرة من معجزات التاريخ، وآية باهرة من آيات صلاحه وخلوده، ولعل هذا العصر الذي نعيشه هو أشد حاجة لإبراز محاسنه وتحديد مكانته في تاريخ الجهاد، وخصوصاً عندما نقرأ على لسان خير الدين الزركلي بقوله (١):

هاني صلاح الدين ثانية فينا وجددي حطين أو شبه حطينا

Furthermore, the research discusses how the Mamluk sultans recovered the Islamic cities in Greater Syria from the hands of the Crusaders, particularly during the reign of Sultan al Ashraf Khalil, who brought down the last Crusader strongholds in Tyre and Haifa, thereby eliminating their presence and restoring Greater Syria to the fold of Islam and the Muslims in 690 AH.

The study aims to highlight the history of Sultan Salah al Din al Ayyubi, draw lessons and moral insights from his life, clarify his efforts in liberating Jerusalem, and draw attention to this unique and exceptional leader.

Keywords: Battle of Hattin, Salah al Din al Ayyubi, Jerusalem, the Crusaders, Greater Syria.

* المقدمة

تُعَدُّ معركة حطين إحدى المحطات الفاصلة في التاريخ الإسلامي، جُسد فيها روح التضحية والصمود الإسلامي في وجه أطماع الفرنج الذين اجتاحت بلاد الشام. إذ تمكن الفرنج من احتلال بيت المقدس، فحولوا مسرى الرسول ﷺ أولى القبلتين وثالث الحرمين مزاراً للشرك والصد عن سبيل الله، فأرسل الله مجدداً لهذا الدين، فأبدل التناحر بين المسلمين بالتحالف، وحول هذا البنيان المهذوم إلى بنيان مرصوص، ففتح الله على يديه القدس بعد أن كسر الصليب، ودق أعناق الصليبيين، ودمر شوكتهم، وأوقف زحفهم إلى

(١) الزركلي، خير الدين بن محمد، ديوان الزركلي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٥٠ - ٥١

ومما تجدر الإشارة إلى أن مصطلح (الفرنج) هو المصطلح الدقيق الذي استخدمه العرب المسلمين للدلالة على تلك الهجمات الأوروبية على الأقطار الإسلامية. في حين أن الأوروبيين قد استخدموا مصطلح (الصلبيون) إذ أرادوا من هذا استنهاض الهمم من الشعوب الأوروبية عامة والجيش خاصة، لأنهم ادعوا أن الصليب قد أھين في بيت المقدس، وأن المسلمين قد عبثوا في قبر نبيهم عيسى وأمه مريم العذراء.

وجاء اختيار عنوان هذه الدراسة (حطين: نقطة التحول وإنهاء هيمنة الفرنج في بلاد الشام)، لأنها تكمن في صنع نماذج حقيقية لأبطال حقيقيين وعظماء في أمة الإسلام يقتدون بها جيل الشباب، كما أنها تسلط الضوء على معركة حطين الخالدة، وأخذ العبرة والعظة منها، وتعكس صورة مضنية لقائد مُسلم تنمى وجود أمثاله من جديد في وقتنا الحاضر.

قُسمت هذه الدراسة إلى مقدمة، وملخص باللغة العربية والإنجليزية، ومبحثين، بدأت الدراسة بمقدمة تناول الباحث فيها التمهيد والتعريف بالموضوع بشكل عام، شارحاً فيها وضع المسلمين قبيل الفتح، إلا أن جاء محررها صلاح الدين مُتكلمًا بشكل وجيز عن عظمته، وخاتمة، بالإضافة إلى قائمة المصادر والمراجع.

أما المبحث الأول فكان تحت عنوان ترجمة حياة صلاح الدين الأيوبي، وقد قسم إلى ثلاثة نقاط نذكرها: مولده ونشأته، حياته، وفاته. كان المبحث عبارة عن التعريف بالقائد صلاح الدين.

أما المبحث الثاني فجاء تحت عنوان حطين ونهاية الفرنج في بلاد الشام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، وقد تكلمنا فيه عن معركة حطين الخالدة، وكيف قضى صلاح الدين على الفرنج، ووضع حدًا لوجودهم في بلاد الشام.

وقد رجع الباحث إلى مجموعة من المصادر والمراجع، ولكن اعتمد بشكل رئيسي على رأسها كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد) و ابن شداد هو الذي لازم صلاح الدين الأيوبي طوال الحكومة الأخيرة من حياته التي قضاها في الشام، وهذا الكتاب يحمل وصفًا تفصيليًا دقيقًا للأحداث التاريخية والمعارك الحربية في تلك الفترة ، وأيضًا كتاب (البداية والنهاية لابن كثير) ابن كثير غني عن التعريف، وكتابه يُعد من أهم المصادر في التاريخ الإسلامي، وهو عرض للتاريخ من بدء الخلق إلى وفاته سنة ٧٧٤هـ، بالإضافة إلى كتاب (الكامل في التاريخ لابن الأثير)، وهو أيضًا من أهم المصادر في التاريخ الإسلامي، كتابه تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب، وما بينها، بدأه منذ أول الزمان إلى آخر سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة، وكتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل) هو كتاب في تاريخ وأخبار الدولة الأيوبية منذ قيامها إلى زوالها، وأورد فيه ابن واصل أخبار سلاطين بني أيوب، وجملة محاسنهم ومناقبهم. كما رجع الباحث إلى العديد من المراجع أهمها كتاب (حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي لشوقي أبو خليل)، وكتاب (صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس للدكتور علي الصلابي)، وكتاب (صلاح الدين والصلبيون تاريخ الدولة الأيوبية لأحمد الشامي).

أما الأهداف التي يصبوا إليها الباحث في هذه الدراسة فهي: -

١- إبراز التاريخ الحقيقي للسلطان صلاح الدين الأيوبي وأخذ العظة والعبرة منه.

٢- توضيح جهود السلطان صلاح الدين في تحرير بيت المقدس.

٣- لفت الأنظار إلى هذا القائد الفريد.

٤- فهم دور المعركة في نهاية حُكم الفرنج في بلاد الشام، وكيف كانت نقطة تحول في تاريخ الحكم الفرنجي في بلاد الشام؟

أولاً: ترجمة حياة صلاح الدين الأيوبي

١- مولده ونشأته

هو يوسف بن أيوب بن شادي الدويني سلطان مصر والشام والجزيرة (١)، ودوين (٢) هي موطن أهلهم، وهم من العرق الكردي كما أثبت أغلب المؤرخين من الأكراد الزاودية أحد بطون الهذيانية (٣).

ولد صلاح الدين الأيوبي سنة خمسمئة واثنتين وثلثين للهجرة وألف ومائة وسبع وثلثين للميلاد في قلعة

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ج ١٠، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٢م، ص ١١٨، سيشار إليه لاحقاً ابن الأثير، الكامل في التاريخ

(٢) دوين: يضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الباء المثناة من تحتها وبعدها نون، وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أَران وبلاد الكرج. ابن خلكان، شمس الدين بن أحمد (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٧، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م، ص ١٣٩، سيشار إليه ابن خلكان، وفيات الأعيان

(٣) الذهبي، شمس الدين بن محمد (ت ٧٤٨هـ)، نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسين عقيل موسى، دار الأندلس، جدة ١٩٩١م، ص ١٤٨٩، سيشار إليه لاحقاً الذهبي، نزهة الفضلاء، الشامي، أحمد، الشامي، صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، ط ١، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٧٥، سيشار إليه لاحقاً الشامي، صلاح الدين والصليبيون

(٤) تكريت: مدينة في العراق، على شاطئ نهر دجلة الغربي، شمال سامراء، أبو خليل، حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، ط ١، دار

تكريت (٤). كان أبوه نجم الدين أيوب والياً على تكريت في تلك الفترة (٥).

وبعد مدة من نضوج هذا الطفل بدأت مرحلة التنقل مع والده نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه من بلدة لبلدة. فانتقل من بلدة تكريت الذي ولد فيها بطل قصتنا باتجاه الموصل، ومن ثم كان الانتقال إلى الشام المكان الذي نشأ وترعرع فيه صلاح الدين وتلقى علومه الإسلامية، بالإضافة إلى ممارسته فنون الفروسية والصيد والرمي بالسهم وغيرها من ضروريات الحرب، وبعدها كان الانتقال إلى بعلبك (٦) وأقاموا بها مدة من الزمن (٧).

وذكرت بعض المراجع أن طفولته الأولى ونشأته كانت في بلدة بعلبك، وهي البلدة التي جعلت صلاح الدين

الفكر، دمشق ٢٠٠٥م، ص ٥٣، سيشار إليه أبو خليل، حطين صلاح الدين الأيوبي

(٥) ابن شداد، أبو المحاسن بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ٩، سيشار إليه ابن شداد، النوادر السلطانية، أبو خليل، شوقي، حطين صلاح الدين الأيوبي، ص ٥٣، الصلابي، علي محمد، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٢٢٥، سيشار إليه الصلابي، صلاح الدين الأيوبي

(٦) بعلبك: بالفتح ثم السكون، وفتح اللام، والباء الموحدة، والكاف مشددة: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وقيل اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل، الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، ج ١، ط ٩، دار صادر، بيروت، ٢٠١٥م، ص ٤٥٣، سيشار إليه لاحقاً، الحموي، معجم البلدان، ج

(٧) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٩، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٢٢٦

يستشيط غضبًا لما كان يراه ويسمعه من اعتداء الصليبيين على أبناء جلدته من المسلمين (١).

ويلحظ الباحث أن هذه الانتقالات في نشأة صلاح الدين كان لها الأثر الكبير في صقل شخصية هذا العظيم فيما بعد، واندماجه مع الكبار أمثال أبيه وعمه الذي كان مؤثرًا فيه، وما عرضنا يثبت أن صلاح الدين كان مهتمًا بالعلم وبخاصة العلوم الشرعية؛ لما هنالك من إشاعات أنه صاحب حرب فقط كما يقول بعض الجهلة وأن القائد لا يعتمد على القوة العسكرية فقط، بل أيضا القوة الإيمانية وهي الأهم، وهذا ما نحتاجه في وقتنا الحالي إلى تنشئة سليمة إيمانية عالية لكي نصنع نماذج كصلاح الدين.

وكما يقول الشاعر أبو العلاء المعري (٢): -

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

٢ - حياته

بدأ صلاح الدين حياته برتبة عريف، ولم يكن لأحد أن يتخيل أن هذا الشخص سيصنع المستحيل وسيكون فاتحًا لبית المقدس؛ لما اتصف به من التقوى والورع والهدوء والصمت الشديد (٣)، ولكنه كما ذكر الذهبي كانت في داخله همّة كبيرة في إقامة الجهاد في سبيل الله، وإبادة الأعداء، ما سُمع بمثلها في دهر (٤).

وفي عام ٥٥٨ هـ دخل مصر هو وعمه أسد الدين شيركوه (٥) عن طريق ثلاث حملات لها؛ لإنقاذها من الصليبيين وكان هذا توجيهًا من نور الدين. وقد نجحوا في حملتهم الثالثة واستطاعوا أن يكونوا بجانب الخليفة الفاطمي العاضد بالله، وقام أسد الدين بقتل شاور لتعاونه مع العدو الصليبي ضد المسلمين وقد ولى الخليفة العاضد شيركوه منصب الوزارة في دولته وأطلق عليه لقب المنصور، ولكنه توفي بعد شهرين ولم يجد أفضل من صلاح الدين ليوليه بدلًا من عمه منصب الوزارة، وقد أطلق عليه الخليفة لقب الناصر في سنة ٥٦٤ هـ (٦). ويقال تم تفويضه الوزارة من قبل عمه أسد الدين قبل وفاته (٧).

وكانت المدة التي قضاها مع عمه في الديار المصرية من أكثر الأوقات والأيام التي أظهرت شدته وقوة بأسه وشجاعته وصبره في الحرب، وكان من رجال عمه الذي اعتمد عليه بشكل كبير، ولم يكن ليأتي هذا الاعتماد لولا أن رافقه ورأى براعته وعبقرياته العسكرية الفريدة من نوعها (٨).

وبعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد أصبح صلاح الدين الأيوبي الخليفة على المسلمين في مصر سنة خمس مئة وأربع وستين (٩). وبعد مدة قصيرة تُوفي نور الدين الملك العادل، فضم بلاد الشام إلى ملكه، وقد أصبحت تحت أنظار الفرنج، وكانت نيتهم الاستيلاء عليها لولا صلاح الدين، فقد

(١) عاشور، فايد، شخصيات إسلامية: صلاح الدين الأيوبي، مجلة التربية، ع ٤٠، يوليو ١٩٨٠م، ص ٧٨

(٢) ابن واصل، جمال الدين (ت ٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشبال، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ١٦٨، سيشار إليه ابن واصل، مفرج الكروب

(٣) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٢٢٩
(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١١٨

(١) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٢٢٦
(٢) المعري، أحمد بن عبد الله، ديوان اللزوميات، مج ٢، تحقيق: أمين الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ص ٤١٣

(٣) الأحمد، مؤيد محمد، السلطان صلاح الدين الأيوبي، مجلة نهج الإسلام، ٧٨/٧٧ع، تشرين الأول ١٩٩٩م، ص ١٨٠

(٤) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٤٩٠
(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ١٤٦

نجح في إقامة دولته المكونة من مصر وبلاد الشام، وانهز الفرصة ليعيد مذهب السنة إلى البلاد، بعد أن كانت لوقت طويل تحت المذهب الشيعي الفاطمي، وأقام العدل في الأمصار (١).

كان صلاح الدين تهوى نفسه الجلوس مع العلماء والفقهاء الكبار لأخذ العلم والاستماع لهم (٢)، لهذا كان كثير التعظيم للشعائر الإسلامية التي تهدئ من روعه ونفسه (٣). تميزت شخصيته بالكثير من الصفات التي جعلته محل احترام كبير بين أهله ورعيته، والتي كانت السبب الأبرز لتحقيق وتحصيل أهدافه في الحياة، نذكر منها: الشجاعة، والكرم، والوفاء، والتسامح، والحلم، والعدل، والعفو، والمروءة، وشدة تقربه إلى الله وحبه الكبير للجهاد وصبره واحتسابه وحرصه على العلم والتعليم من جلساته مع العلماء، والتواضع مع الناس.

ونختم قولنا في هذه الجزئية بقول ابن شداد عنه: " كان حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم، عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيولهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها" (٤).

نستخلص مما سبق أن السلطان الكبير، الملك الناصر كانت حياته لله، ولكن مع الأخذ بالأسباب والجد والاجتهاد أي لم يجعل همه الأكبر هو الدنيا، وبنفس الوقت سعى فيها، فأصبح خليفة للمسلمين، واستعمل هذه الخلافة لآخرة ولمرضاة الله عز وجل، ولو تمثلنا هذا النموذج من حياته

العسكرية والدينية الروحية في حياة هذا العظيم وطبقناه في حياتنا لتغير حال أمتنا ولأصبحنا في عزة وكرامة، ويلخص قولنا هذا قول الشاعر الكبير السهروردي بقوله (٥):

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ إِنَّ التَّشَبَّهَ بِالْكَرَامِ فَلَاح

ومع كل هذه القوة وشدة البأس التي يتمتع بها صلاح الدين، إلا أن هناك جانب يجهله الكثيرون وهو الجانب الروحاني والديني، إذ كان خاشعاً ورقيق القلب، دمعته قريبة، تتغير ملامحه من الخشوع إذا سمع القرآن ويصبح وجهه ممتلئاً من الدموع، كما أنه كان يحبذ سماع الحديث الشريف بكثرة (٦).

كما كان - رحمه الله - كما ذكرت أغلب المصادر والمراجع كثير الصلاة وخاصة الصلاة مع الجماعة لما فيها من أجر، حتى في أوقات مرضه يجبر نفسه على صلاة الجماعة لشدة إيمانه، بالإضافة إلى عدم تقصيره في صلاة السنن ومنها قيام الليل وكان يحب الصلاة من حبه لتلاوة القرآن الكريم ليتغنى ويستمتع به (٧).

٣- وفاته

في سنة ٥٨٩ هـ خرج السلطان صلاح الدين ليقوم بواجب استقبال الحجاج العائدين من بيت الله الحرام، وكانت من عادات الملوك سابقاً، وعند عودته إلى بيته أصابه مرض شديد لازمه ثمانية أيام (٨). وكان ذلك يوم السبت، إذ بدأ يشعر بالكسل والخمول في بداية الأمر وعند مجيء الليل أصبح المرض يشتد عليه، ويزداد الوضع سوءاً؛ لما أصابه من حمى

(٥) السهروردي، يحيى بن حبش، ديوان السهروردي المقتول، تحقيق: كامل الشيبني، مطبعة الرفاه، بغداد، ٢٠٠٥م، ص ٦٢
(٦) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١١
(٧) الشامي، صلاح الدين والصليبيون، ص ٧٨
(٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١١٨

(١) عاشور، فايد، شخصيات إسلامية: صلاح الدين الأيوبي، مجلة التربية، ع ٤٠٤، يوليو ١٩٨٠م، ص ٧٨
(٢) الشامي، صلاح الدين والصليبيون، ص ٨٠
(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١١
(٤) أبو خليل، حطين صلاح الدين الأيوبي، ص ٦٩

صفراوية، كانت تتغلغل في داخله أكثر من الواضح عليه ومع كل يوم يزداد ويشدد عليه المرض، ولم يكن الرعاية على دراية بما يحدث للسلطان (١).

ومع كل هذا المرض الشديد والتعب والإرهاق لم يغضب السلطان ولم يرفع صوته على أحد من حاشيته ومساعديه، وظل طوال الوقت يردد " سبحان الله " (٢)، وفي هذه الأيام كان كثير الاعتذار لمن حوله؛ لما أحس أنه قد سبب لهم المتاعب في مساعدته في أقل الأمور (٣).

وفي ليلة السابع والعشرين من صفر من نفس السنة ٥٨٩هـ (٤) زاد وتضاعف عليه المرض، وأصبح لا يقوى على فعل أي شيء (٥)، وبعد صلاة الفجر بقليل من يوم الأربعاء توفي السلطان والقائد العظيم صلاح الدين الأيوبي (٦)، وكان يبلغ من العمر سبع وخمسون سنة (٧).

دفن السلطان بقلعة دمشق (٨) بقي موجوداً فيها، وقد بُني قبة خاصة بقبوره تكريماً له وتقع هذه القبة حالياً في الشمال من جامع دمشق (٩).

وبعد معرفة المسلمين بخبر وفاته كان الأثر عظيمًا في نفوسهم، وقد اغتموا لذلك وأصابهم الحزن الشديد (١٠). وقد كتب القاضي الفاضل يعزي الملك الظاهر غازي صاحب حلب بوفاة والده برسالة مؤثرة، يوضح فيها

مدى حزنه الكبير على وفاة السلطان، وختم رسالته بقوله: " تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا يا يوسف لمخزونون (١١)، ختمها بالاعتباس من القرآن الكريم بأسلوب يشبه قول إخوة يوسف: " يا أسفى على يوسف ". مما يُضفي على الرسالة حزنًا عميقًا. استخدم القاضي الفاضل في رسالته أسلوبًا أدبيًا مؤثرًا، يجمع بين الرثاء والعزاء، كما أشار إلى عظمة صلاح الدين، وأثر فقده على الأمة الإسلامية.

ويلحظ الباحث في وفاة السلطان صلاح الدين أنه كان محبوبًا من القريب والبعيد، وأنه كان يقوم بواجبه كسلطان حتى وهو على فراش المرض، ويدل حزن المسلمين على وفاته أنه رفع من عزيم وأعلى من شأنهم ورفع من كرامة النفس البشرية وأراهم العدل، لن نقول بأفضل صورة؛ لأنه ليس بنبي، ولكنه فعل ما جل استطاعته عليه لجعل المسلمين في مكانة أرقى وأفضل.

وفي نهاية حديثنا نقول رحم الله السلطان صلاح الدين، وأبدل الله الأمة العربية والإسلامية خيرًا منه، عسى ربنا أن يبدل حال أمتنا، ونرجع إلى العزة والرفعة التي كنا فيها.

(٥) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٦٤٢

(٦) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٨٧

(٧) ابن تغري بردي، يوسف بن عبد الله (ت ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٦، دار الكتب المصرية، مصر، ١٩٥٦م، ص ١٣٤

(٨) الذهبي، نزاهة الفضلاء، ص ١٤٩٢

(٩) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٧، ص ٢٠٦

(١٠) الذهبي، نزاهة الفضلاء، ص ١٤٩٣ - ١٤٩٤

(١١) المصدر نفسه، ص ١٤٩٣ - ١٤٩٤

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٨٤

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٨٤

(٣) أبي شامة، شهاب الدين بن عبد الرحمن (ت ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ٤، تحقيق: إبراهيم الزبيق، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٣٥٨، سيشار إليه لاحقًا أبي شامة، الروضتين في أخبار الدولتين

(٤) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ج ١٦، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط ١، دار هجر، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٦٦٠، سيشار إليه لاحقًا ابن كثير، البداية والنهاية، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١١٨

ثانيًا: حطين ونهاية الفرنج في بلاد الشام ٥٨٣هـ /

١١٨٧م

تُعَدُّ معركة حطين من أعظم المعارك الفاصلة في تاريخ الصراع الإسلامي - الفرنجي؛ إذ مثّلت نقطة تحوُّلاً حاسمة، أنهت التفوّق العسكري لمملكة بيت المقدس، ومهدت الطريق أمام المسلمين لاستعادة القدس بعد احتلال دام قرابة تسعين عامًا. ولم تكن حطين مواجهة عسكرية عابرة فقط، بل جهد مشروع طويل انتهجه صلاح الدين الأيوبي، قام على توحيد الجبهة الإسلامية سياسيًا وعسكريًا، وإعادة بناء روح الجهاد، واستنزاف قوة الفرنج عبر سياسة النفس الطويل والتحرّك المدروس.

قبل وقوع معركة حطين باثني عشر عامًا أي سنة ٥٧١هـ الموافق ١١٧٥م، اشتملت هذه المدة رغم قصرها، بسلسلة من الحروب الطاحنة بين المسلمين والفرنج، إذ تميزت بأمرين، الأول: أن الفرنج فيها كانوا هم المهزومين على الدوام، والثاني: أن الحرب دائمًا تضرّم نارها نتيجة نكث للعهود والمواثيق. والسبب وراء ذلك، أن الفرنج كانوا يحسون بتصاعد قوة صلاح الدين وجيشه؛ إذ كانوا يطلبون الهدنة بعد الأخرى، ليلتقطوا الأنفاس، ويريجوا الأجساد، ويتمكنوا من تجديد عتادهم القادم بدعم أوروبي كامل. ولكنهم كانوا كلما أبرموا هدنة نقضوها، إما استغلالًا لفرصة سانحة، أو طمعًا في غنيمة. وموقعة حطين لم تكن إلا خاتمة ومكملة لهذا الصراع الإسلامي الفرنجي (١)

وفي العام الذي سبق معركة حطين وبالتحديد في شهر آب لعام ١١٨٦م توفي الملك بلدوين الخامس بعد شهور من توليه مقاليد الحكم (٢)، وبدأ التوتر والصراع على عرش المملكة بين الأمراء، وهذا كان أثرًا سلبيًا للفرنج وإيجابيًا للمسلمين. وبعد النزاعات فيما بينهم، آلت السلطة والعرش لجاي لوزينيان، وأصبح ملكًا على بيت المقدس، أظهر ريموند أمير طرابلس تقريبًا من صلاح الدين، فكان ظاهر هذه القرية مصلحة واضحة لريموند، إلا أن الأمر كان يصب في مصلحة المسلمين بحسن تقدير الله لهم وإعلاءً لكلمته (٣).

كان صلاح الدين يعمل على بناء قوة عسكرية، وتجنب المواجهات المتشعبة. وفي ذات الوقت لم يقيم الفرنج بتوحيد صفوفهم لمواجهة الجيش الإسلامي. ففي سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، أمر صلاح الدين أهل حلب بمصالحة بوهيمند الثالث أمير أنطاكية، حتى تتسنى الفرصة له بالجهاد من جبهة واحدة. كما استغل صلاح الدين هذه الأوضاع المتأزمة داخل مملكة بيت المقدس، خاصة بعد أن تولى "غي دي لوزينيان" الحكم عن طريق زوجته "سبييلا"، التي تنازلت عن العرش لصالحه. وقد رفض "ريموند الصنجلي" صاحب طرابلس هذا التتويج، كما عارضه فرسان الداوية، وطالبوه بالعمل بوصية الملك الراحل التي تؤذن به وصيًا فقط وليس ملكًا. فأدى ذلك إلى لجوء ريموند إلى صلاح الدين طالبًا مساعدته ضد الملك الجديد وفرسان الداوية، فاستجاب له صلاح الدين، ووعدته بالدعم، مما أضاف نصيرًا جديدًا من الفرنج وأحدث فجًا واسعًا في صفوفهم. وتصاعد الخلاف بين الملك جاي

(٢) ستيفن، وب، معركة حطين وتحرير القدس، مجلة المورد، ع ٤٤، ص ٤١
(٣) أبو خليل، حطين صلاح الدين الأيوبي، ص ٧٧، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٩٣ - ٩٤

(١) الأشتري، صالح، معركة حطين ٥٨٣/١١٨٧م، دار الشرق العربي، بيروت، د.ت، ص ١١٦ - ١١٧، سيشار إليه لاحقًا، الأشتري، معركة حطين

لوزينيان وريموند إلى المستوى الذي استدعى أن يقدم الأخير على حشد قواته في طبرية ويستعد للمواجهة، بينما هيا الملك جيشاً كبيراً لقتاله. وكان الصدام حاصلاً لولا تدخل بعض الأمراء الذين قاموا على تهدئة الأوضاع ومنع نشوب الحرب الأهلية (١).

واجه الفرنج استعدادات صلاح الدين الضخمة، مما دفع الملك جاي لوزينيان إلى استرضاء ريموند صاحب طرابلس ومصالحته. ومع ذلك، فقد نجح صلاح الدين من خلال تدخله في الشأن الفرنجي، ودعمه أحد الأطراف ضد نظيره في تحقيق مصالح مهمة، أبرزها تأجيج نار الخلاف بين ريموند الصنجلي وبعض أمراء الفرنج، خاصة "أرناط" صاحب حصن الكرك. ولهذا السبب وصف المؤرخ ابن الأثير تحالف صلاح الدين المؤقت مع ريموند بأنه من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم واستعادة بيت المقدس. كما عقد صلاح الدين هدنة مستقلة مع بوهيمند الثالث أمير أنطاكية، سواء كان يطلب منه أو بدعوة من صلاح الدين نفسه، ليضمن تأمين خطوطه الخلفية، ويتفرغ للقتال في الجهة الجنوبية. وقد وسّع ريموند الثالث إطار اتفاقه مع صلاح الدين ليشمل حماية منطقة الجليل، مما مهد الطريق أمام صلاح الدين للتحرك بين نهر الأردن وفلسطين (٢).

إن المتتبع لحال أرناط السابق مع المسلمين، ونكته العهد مرة تلو المرة، لن يستهجن نقضه الميثاق مع المسلمين. فهذه المرة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، فتمثلت

السبب الرئيسي للمعركة؛ إذ هاجم أرناط حاكم الكرك قافلة تجارية مصرية مُسلمة وجهتها من القاهرة إلى دمشق، فاستولى عليها وقتل وأسر من فيها، مما أثار غضب صلاح الدين، فطلب منه إرجاع القافلة بما فيها، فقبل طلبه بالفرض، ولم يكتفِ برفضه فحسب، بل أتبع رفضه بردٍ جريّ تطاول فيه على المسلمين، بقوله: "قولوا لمحمد يخلصكم"، فكانت مهلكته ومن معه بقوله هذا. مما استنهض صلاح الدين بقسم ونذر بدمه بأن يقتله أن ظفر به. فكان القرار الحتمي الناصر أن يكون الرد عسكرياً، لصون قداسة النبي والنصرة لدين الله (٣).

وعلى الفور جمع صلاح الدين جيشاً كبيراً من مصر والشام والعراق، وبدأ بحشد قواته في سهل البقاع (٤). فكتب رسائل يدعو فيها جميع الأمصار الإسلامية إلى الجهاد واستنفار المسلمين من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر. فخرج فاتحاً بإذن الله من دمشق في شهر محرم عام ٥٨٣هـ/ ١٣ آذار ١١٨٧م، فتحرك باتجاه الجنوب يرأس جيشاً جرازاً، وحينما وصل إلى نبع الماء شرق حطين، وجه أمراً لأبنة الملك الأفضل أن يقيم عليها مع بعض الجنود؛ ليمنع الفرنج من الوصول إلى المياه. وليجتمع عنده باقي الجنود والإمدادات. وفي الحين ذاته توجه صلاح الدين إلى بصرى الشام، وخيم على قصر السلامة؛ ليؤمن الحماية لقافلة حجاج بيت الله من عدو الله أرناط (٥).

ص ٢٥٢، سيشار إليه لاحقاً، قمعون، الدور الصليبي لهيئة الداوية في معركة حطين
(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٨١
(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٠، قمعون، الدور الصليبي لهيئة الداوية في معركة حطين، ص ٢٥٢،

(١) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٩٤

(٢) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٩٥

(٣) ابن شداد، النواذر السلطانية، ص ١٥٢، أبو خليل، حطين صلاح الدين الأيوبي، ص ٧٧-٧٨، قمعون، عاشوري، الدور الصليبي لهيئة الداوية في معركة حطين في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي (١١٩٣-١١٩٩م)، مجلة البحوث والدراسات، ع ١١، ٢٠١١م،

فبعد أن اطمأن على سلامة القافلة، شرع في مهاجمة منطقة الكرك، فلما علم صاحبها بقرب الجيش الإسلامي استحكم في حصنه. فتمثل تحرك صلاح الدين وجيشه للكرك لغايتين، الأولى: إبعاد الشك عن الغاية الحقيقية، وهي الهجوم على مملكة بيت المقدس، والثانية: بث الرعب في نفوس الفرنج وعلى رأسهم أرناط، ومنعه من الذهاب لبيت المقدس. إذ عسكر الجيش وأقاموا في المنطقة، ثم توجه إلى الشوبك، وفعل فيها فعلة الكرك ذاتها، وبقي في الأردن مقيمًا طيلة شهر صفر وربيع الأول من العام ٥٨٣هـ. لتغطية الحشود التي كانت مع ابنه الأفضل عند نبع الماء (١). وفي أثناء وجود صلاح الدين الأيوبي بالقرب من حصن الكرك لحماية الحجاج من اعتداءات الصليبيين، أرسل قوة استطلاعية مختارة بقيادة مظفر الدين كوكبوري وبدو الدين دلدوم وصارم الدين قايماز لشن غارة على ممتلكات العدو في صفورية، فسارت السرية بسرية تامة وهاجمت في الصباح الباكر، مما أدى إلى معركة شرسة انتهت بانتصار المسلمين ومقتل وأسر معظم الفرنج، وعلى رأسهم مقدم الإسبانية وعدد من فرسانهم، بينما هرب مقدم الداربية بصعوبة، وحين حاولت قوة صليبية أخرى الإسراع لنجدة رفاقهم زادت الهزيمة سوءًا. وقد أسر المسلمون قوات النجدة الفرنجية بأكملها بعد انتهاء المعركة، وعادوا منتصرين حيث شكل هذا النصر بداية ميمونة وتمهيدًا لسلسلة من الانتصارات اللاحقة، وقد تسببت هذه المعركة في إلحاق خسائر كبيرة بالفرنج في الجنود والعتاد، وبث

الرعب في قلوبهم، مما جعلهم يدركون مدى خطورة التجميع العسكري الجبار الذي أعده السلطان صلاح الدين لمواجهةهم (٢).

فكان هذا التحرك الميمون للسلطان صلاح الدين هدفه المنشود ووجهته الوحيدة هي فتح بيت المقدس، وتخليص بلاد الشام والأمة الإسلامية من ظلم وغطرسة الفرنجة (٣). بعد علم صلاح الدين بتجمع الجيش الفرنجي في صفورية، بعد هزيمتهم أمام السرية الإسلامية، عقد اجتماعًا مع قادته لبحث الخطط المرتقبة لمواجهة القادة، إذ انقسمت الآراء بين مجموعة تفضل استمرار تكتيك الغارات المتكررة لإضعاف العدو تدريجيًا قبل ضربه ضربة حاسمة، ومجموعة ترى التقدم نحو عمق الأراضي الصليبية وخوض معركة فاصلة مباشرة. وقد اختار صلاح الدين الخطة الثانية وهي القضاء عليهم في معركة حاسمة تنهي وجودهم. وهنا تظهر براعته العسكرية؛ في فهم طبيعة الجنود التي في جيشه (٤).

وعندما سمع الفرنجة بقدوم صلاح الدين وعن نيته في الإجهاد عليهم، قاموا بوضع صلح بين ملوكهم لوقف المد الإسلامي، وتناسي الخلافات فيما بينهم، أمثال صالح قومس طرابلس، وحاكم الكرك أرناط الفاجر كما وصفه ابن كثير

(١) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٩٦ - ٤٩٧
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢١، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٩٧ - ٤٩٨، الأشر، معركة حطين، ١٣٠
(٣) الأصفهاني، محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ)، الفتح القوسي في الفتح القدسي، ط ١، دار المنار، عمان، ٢٠٠٤م، ص ٤٢

(٤) صفورية: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وواو، وراء مهملة ثم ياء مخففة: كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام، وهي بالقرب من طبرية، الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٤١٤
(٥) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٩٩

(١). كما تحركت القوات الصليبية بقيادة الملك جاي لوزينيان من صفورية باتجاه بحيرة طبرية لملاقاة المسلمين (٢).

قال صلاح الدين: "والله إني لأستحي من الله أن أضحك والمسجد الأقصى ما زال محتلاً" (٣) جهز السلطان صلاح الدين جيشاً لمعركته الفاصلة مكوناً من اثني عشر ألف مقاتل عدا الجنود المتطوعة (٤)، وكان عدد جنود الفرنج في حطين (٥) مختلفاً فيه بين المؤرخين، فمنهم من قال خمسين ألفاً ومنهم من قال ثلاثة وستون ألفاً (٦).

تقدم صلاح الدين في جيشه من مدينة الكرك (٧)، إلى عشترا، (٨) وأقام ليلة في خسفين (٩)، مروراً بنهر الأردن (١٠)، وقد دخل طبرية بجيشه، إذ حاصرت قواته بحيرة طبرية وكانوا على استعداداً تام للمواجهة بعد نزولهم غرب البحيرة عند سفح الجبل. وعلى الرغم من توقعه هجومًا من قبل الفرنج لم يحدث ما توقع، فزحف بجزء من جيشه فاتحاً طبرية، في ليلة واحدة، بينما تولى جنوده تخريب المنطقة ونهبها، دون فتح

قلعتها (١١)، ولم يأخذ فتحها من المسلمين سوى ساعة واحدة (١٢)، بدأت المعركة يوم السبت في الخامس والعشرين من ربيع الآخر (١٣) سنة ٥٨٣ هـ (١٤) وألف ومائة وسبع وثمانين للميلاد (١٥).

وبعد استطاعة صلاح الدين الأيوبي ضم طبرية في أيدي المسلمين، اجتمع قادة الفرنج وتشاوروا في الأمر. وكان لريموند الثالث حاكم طرابلس، رأي يري البقاء في صفورية وانتظار جيوش صلاح الدين حتى تصل وهي متعبة ومستنزفة؛ بسبب المسافة الطويلة عبر الصحراء بين طبرية وصفورية، مما يسهل هزيمتها. وكان رأي هذا سديداً ومتوافقاً مع الخطة التي اتبعها صلاح الدين نفسه. ولكن تهور أرناط كان من صالح المسلمين، إذ كان رأيهم الهجوم على جيش المسلمين في طبرية، وقد دعم رأيهم جيرار دي ريدفورت، كبير فرسان الداوية، وكلاهما كانا متلهفين للقتال قبل أن تتعزز قوات صلاح الدين، وجاي لوزينيان شجع أرناط على رأيهم، وقرروا الزحف

(٧) الأصفهاني، الفتح القُسي في الفتح القدسي، ص ٤٢
(٨) عشترا: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح التاء المثناة من فوق الراء، وهي موضع في حوران من أعمال دمشق، الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٢٥
(٩) الشامي، صلاح الدين والصليبيون، ص ١٢٥
(١٠) صلاح، محسن محمد، الطريق إلى القدس، ط ٥، مركز الزيتونة، بيروت، ٢٠١٤م، ص ١١٣، سيشار إليه لاحقاً صلاح، محسن محمد، الطريق إلى القدس
(١١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٨٩، الشامي، صلاح الدين والصليبيون، ص ١٢٥
(١٢) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٥١
(١٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٤
(١٤) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج ٣، ص ٢٩٢
(١٥) الشامي، صلاح الدين والصليبيون، ص ١٢٤

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ٣٤١
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٨١
(٣) الترياني، جهاد، مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ، ط ٧٢، دار النقوى، القاهرة، ٢٠١٧م، ص ٤٤٦
(٤) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ج ١٢، تحقيق: أحمد أبو ملح وعلي نجيب عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبد السار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٣٤٣ سيشار إليه لاحقاً ابن كثير، البداية والنهاية
(٥) حطين: هي قرية بفلسطين بين أرسوف وقيسارية، عندها قبر شعيب النبي عليه السلام وهي على بعد ثلاثة كيلو غرب طبرية، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٩٠، أبو خليل، حطين صلاح الدين الأيوبي، ص ٨٠، محاسنة، محمد حسين سلامة، معركة حطين، المجلة العربية للثقافة، ٢٦، شوال ١٩٩٤م، ص ١٥٦
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ٣٤١

من صفورية، ونقض ريموند عهده مع صلاح الدين. وهذا ما أراده صلاح الدين والجيش الإسلامي. وقامت فرسان الداوية والاسبانية بالتحرك نحو طبرية^(١). وكان ريموند أمير طرابلس على رأس الجيش، وتولى جاي لوزينيان قلب الجيش ويساعده أرناط، وكان قائد مؤخرة الجيش الفارس فاليان، وهو كان أسيراً لدى صلاح الدين، وقد أطلق سراحه بشرط ألا يقتال ضده في أي معركة وكان هذا الاتفاق^(٢).

وهنا يتجلى لنا بوضوح أن تحالف الفرنج مع المسلمين، مهما بدا متيناً وقوياً ومبنياً على مصالح مشتركة، يظل تحالفاً عابراً تحكمه المنفعة لا المبدأ؛ إذ سرعان ما يتهاوى عند أول منعطف حاسم، فينحازون بلا تردد إلى من يشاركهم الملة والانتماء، مقدمين رابطة العقيدة على كل ميثاق، ومغلبين الولاء الديني على أي التزام سياسي أو اتفاق وقفي. وقد فرح صلاح الدين بتمكنه من استدراج الفرنج إلى سهل حطين، حيث حاصرهم، وقد عانى الفرنج في المعركة من العطش، مما أضعف معنوياتهم وعزيمتهم^(٣)، وقام السلطان بصددهم لمعرفته نيتهم للتقرب من طبرية للحصول على المياه، كما كانت سهام المسلمين عليهم كالجراد كما وصفها ابن الأثير، وكان القتال على أشده بينهم، فقتل المسلمين منهم ومن خيولهم قتلاً كثيراً^(٤).

وفي اليوم التالي يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الثاني كانت حر الشمس تُهلك طاقاتهم، ولم يهدئ المسلمون من ضرب المجانيق عليهم، وهذا زاد الوضع سوءاً

بالنسبة لهم، ثم شن صلاح الدين هجوماً مدمراً استخدم فيه تكتيكات التفاف محكمة، مما أدى إلى اختيار الجيش الصليبي^(٥)، ولم يكتفِ صلاح الدين بهذا فحسب، بل أمر بإشعال النار في الأعشاب المجاورة لأرض المعركة، فحملت الرياح، وكانت تتجه نحو جنود الفرنج. اللهب والدخان في وجوههم، فأطبقت عليهم شدة الحر ولهب النار وكثافة الدخان، بالإضافة إلى نقص ماء الشرب مما أضعفهم وأوقعهم في الإعياء. في هذه ظروف المعركة القاسية، ضيق صلاح الدين الحناق على جموع الفرنج، فهاجمتهم القوات الإسلامية هجوماً شاملاً، وسدت طرق الهروب كلها. فتوجه خمسة من جنود العدو إلى قادة المسلمين يتوسلون إليهم بأن يقتلوهم ويرجوا أجسادهم من هذا الوبال الذي حل بهم^(٦).

ومع هذا كله قاوم الجيش الفرنجي فوق التل بكل ما أوتيته من قوة، وتمكن المسلمون من صددهم مراراً وتكراراً، ولكنهم ألحقوا بالمسلمين خسائر فادحة. غير أن هجمات صلاح الدين المتتالية أتت أكلها، وحقت ضرباتها القاضية نجاحاً حاسماً في إجبار الفرنج على التراجع وإبادة أعداد كبيرة منهم، ما أدى إلى إضعافهم وإرهاقهم حتى استحال عليهم مواصلة القتال. واستمر القتال بشكل ساحق من الجبهتين، وبعد محاصرتهم في جبل حطين، تمكن المسلمون من أنزال الصليب وإيقاعه، فشعر الجيش الفرنجي بالهزيمة النفسية؛ عندما حمله المسلمون لصلاح الدين^(٧).

(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٨٩
(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٥، الشامي، صلاح الدين والصليبيون، ص ١٢٧ - ١٢٨
(٧) الشامي، صلاح الدين والصليبيون، ص ١٢٨، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٥٠٣

(١) الشامي، صلاح الدين والصليبيون، ص ١٢٦ - ١٢٧
(٢) التكريتي، سليم طه، معركة حطين وتحرير بيت المقدس، مطبعة وزارة الأوقاف - منشورات مجلة الرسالة الإسلامية، بغداد، ١٩٧٩م، ص ٣١، سيشار إليه لاحقاً، التكريتي، معركة حطين
(٣) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٣٤
(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٤

فوقف السلطان ونادى بأعلى صوته للمسلمين بأن
كبروا، وكان النصر حليفهم، وقُتل ثلاثين ألفاً من الفرنج وأسِر
مثلهم (١).

وفي الحقيقة فإن الخسائر التي تكبدها الفرنجة في
هذه المعركة من قتلى وجرحى تُعد من أعظم المصائب التي
حلّت بهم، ولم ينج سوى قلة من المقاتلين، بالإضافة إلى من
نجا من جنود المؤخرة بقيادة باليان دي إيبيلين، وريجنالد حاكم
صيدا، أو جنود المقدمة بقيادة ريموند صاحب طرابلس، بينما
سقط معظم الجيش الرئيسي بقيادة الملك جاي لوزينيان (٢).
وعلى رأس من أُسر من ملوك الفرنج وعظمائهم،
الملك جفري، وأرنات ملك الكرك الذي نذر السلطان صلاح
الدين نذراً أن يقتله (٣) فقد أسره ومن ثم قتله ليس ثأراً
لنفسه؛ وإنما للإسلام والمسلمين، بالإضافة إلى ابن الهنفرى،
وابن ملك طبرية، ومقدم الداوية وكان من أعظم ملوك الفرنج
(٤)، وملك جبيل، ومقدم الاسبتار، وباقي المقدمين فقد
أجهز عليهم المسلمون في المعركة، وبالنسبة للأدوان فقد كان
منهم القتل والأسير، ولم ينج منهم إلا من وقع في الأسر، لهذا
كانوا يفضلون الأسر خوفاً على حياتهم من الموت (٥). إلا
قومس طرابلس فقد قتل في بداية المعركة (٦).

وبعد هذه المعركة فُتحت الطريق أمام المسلمين
لتحرير معظم أرجاء فلسطين وبلاد الشام، فقد انهارت القوة
الصليبية في فلسطين؛ مما أدى إلى استسلام المدن الصليبية
تباعاً، وأصبحت الطريق مفتوحة لاستعادة القدس (٧)، توجه

صلاح الدين وجيش المسلمين نحو قلعة طبرية ففتحها، لأن
طبرية كانت تُقسم بين بلاد حوران والبلقاء وما حولها من
الجولان؛ ولهذا كانت ذات أهمية كبيرة بالنسبة لصلاح الدين
والمسلمين كافة، و في طريقة قام بفتح إقليم الأردن، ثم أكمل
المسير لمدينة عكا ففتحها صلحاً وكان ذلك يوم الجمعة،
وأخذ كل الغنائم التي فيها، وقام بإنقاذ المسلمين الذين تم
أسرهم فيها وكان عدد الأسرى حوالي أربعة آلاف أسير، وأول
جمعة في بلاد الساحل كانت في عكا بعد سبعين سنة من
احتلال الفرنج لها، ثم أكمل طريقة نحو صيدا وبيروت ومن ثم
توجه نحو غزة وعسقلان ونابلس وبيسان وأراضي الغور
وفتحها كلها وجعل ابن أخيه حسام الدين عمر بن محمد بن
لاشين والياً على نابلس، وكان مجموع البلاد الذي فتحها
وجعلها تحت الحكم الإسلامي قرابة الخمسين بلداً، وكل بلد
فيه جند للمسلمين وقلعة حامية (٨).

ظل الفرنج في فلسطين وبلاد الشام حتى نهاية
العصر الأيوبي، ولكن ليس بنفس تأثيرهم السابق، ومع بداية
دولة المماليك انشغل السلطان سيف الدين قطز بالحروب مع
المغول ولم يعط الكثير من الاهتمام للفرنج.

ومع بداية فترة حكم الظاهر بيبرس بدأ مسيرة تحرير
بلاد الشام من الفرنج؛ لأنه لم ينس لحظات العداوة بين الفرنج
والمماليك، ورؤيته محاولات لويس التاسع ضد دولته الناشئة
حديثاً (٩). ومن شدة غضب بيبرس من الصليبيين كان في
كل عام ما بين (٦٥٩ - ٦٦٩ هـ) يشن هجماته عليهم

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٤٢

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٠١

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٤٣

(٤) محمود، شفيق جاسر أحمد، المماليك البحرية وقضائهم على
الصليبيين في الشام، ط ٢١، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة،

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٤٢

(٢) الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٥٠٤

(٣) الذهبي، نزاهة الفضلاء، ص ١٤٩٢

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٦

(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٥٢، ابن الأثير، الكامل في
التاريخ، ج ١٠، ص ٢٦

ليتمكن من استرداد أنطاكية وطرابلس بالإضافة إلى بعض مملكة القدس، مع محاولات كثيرة لمدن أخرى في الشام، ولكن تحصينات لويس التاسع لها وقفت للمسلمين بالمرصاد (١).

وبعد أن تسلم الحكم السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عزم على إخماء الوجود الصليبي في فلسطين وبلاد الشام ووجد الفرصة قد أتت له عند مهاجمة الفرنج لتجار المسلمين في عكا، فقتل عددًا كبيرًا منهم، وقام بإعلان الجهاد في الأمصار الإسلامية التي تحت حكمه، وقام يأمر القوات في مصر والشام بالتجهز، ولكنه في تلك الأثناء توفي وهو يقيم خارج القاهرة وهو ينتظر وصول بقية قواته، توفي بمرض آتاه على غفلة - رحمه الله - سنة ٦٨٩هـ (٢).

توفي السلطان قلاوون وورث الحكم عنه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل، وفي هذه الأثناء فكر الفرنج أن السلطة المملوكية قد ضعفت فحاولوا عقد صلح مع السلطان الأشرف، ولكنه رفض وبشدة وأكمل مسيرة والده إلى القضاء على المد الفرنسي في بلاد الشام، فبدأ بعكا وقام بمحاصرتها بمساعدة من القوات الشامية، فحررها سنة ٦٩٠هـ، بعد هروب ملكها هنري الثاني إلى قبرص، فبعد فتح عكا زادت الثقة بمن معه فقام السلطان الأشرف بفتح كل من صيدا شديدة التحصين، وصور، وحيفا المدينتين اللتين واجه السلطان صعوبة في فتحهما لشدة قتال أصحابها، وأصدر قرارًا لجيشه بمحدم كل التحصينات (٣).

وهكذا سقطت آخر المعاقل الصليبية على أيدي المماليك، وانتهى وجود الفرنج في فلسطين وبلاد الشام بعد قرنين من الزمان (٤٩٢ - ٦٩٠هـ). وبذلك عادت بلاد

الشام كاملة إلى الحكم الإسلامي الذي استمر حتى تفشى الاحتلال البريطاني والفرنسي المشؤوم لهذه البلاد الإسلامية.

ويرى الباحث أن انتصار المسلمين في معركة حطين، كان لطف الله بالإسلام والمسلمين، ونتاج جد واجتهاد، وأن حنكة وفطنة السلطان صلاح الدين الأيوبي العسكرية كان من أهم أسباب انتصار المسلمين ورفع راية التوحيد ودحض راية الكفر والشرك، وشدة إيمان من معه بالله عز وجل، وإيمانهم بقائدهم. لأن الوحدة أساس النصر، ومن غيرها تصبح أمة ضعيفة لا أحد هياها، ولا يحسب لها أي حساب، وهذا حال أمتنا الإسلامية المحزن، والذي نرجو من الله أن يبدل حالنا إلى ما فيه صلاحنا.

وكانت معركة حطين هي البوابة الرئيسية لتحرير بيت المقدس من أيدي الفرنج. ونذكر أيضًا أن قادة المسلمين يرتبطون برابط واحد، وهو إيمانهم الشديد برهم، أنه الوحيد القادر على نصرهم؛ لأن الإسلام يمكن أن يمرض، ولكنه حتما لن يموت.

* الخاتمة

في نهاية البحث يمكن أن نستنتج من معركة حطين ٥٨٣هـ - ١١٨٧م ونهاية وجود الفرنج في بلاد الشام مجموعة من النقاط الهامة نذكر منها: -

- ١- كانت معركة حطين إحدى أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الحروب الصليبية، ونقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي، حيث مهدت الطريق لاستعادة القدس، وأظهرت عبقرية صلاح الدين العسكرية وحسن تديره في إدارة الحرب.
- ٢- أن صلاح الدين الأيوبي كانت نشأته نشأة بطل منذ صغره، مليئة بالإيمان الكبير بالله، وأن الانتقالات الكثيرة في

(١) صلاح، محسن محمد، الطريق إلى القدس، ص ١٢٧
(٢) صلاح، محسن محمد، الطريق إلى القدس، ص ١٢٧ - ١٢٨، محمود، شفيق، الممالك البحرية، ص ١٣٦

المدينة المنورة، ١٤٠٩هـ، ص ١٢٨ وسيشار إليه لاحقًا محمود، شفيق، الممالك البحرية
(١) محمود، شفيق، الممالك البحرية، ص ١٢٩

صغره كان لها الأثر في تغيير الكثير من شخصيته على النحو الإيجابي، بالإضافة إلى جلساته الكثيرة مع والده وعمه التي جعلت منه مشروع قائد سيغير مجرى التاريخ.

٣- كانت حياة السلطان صلاح الدين مليئة بالجهاد، ولكن مع الأخذ بالأسباب والجِدِّ والاجتهاد، ولم يجعل همه الأكبر هو الدنيا وبنفس الوقت سعى فيها فأصبح خليفة للمسلمين، واستعمل هذه الخلافة للآخرة ولمرضاة الله عز وجل، ورد الشبهات عنه بأنه غير ملتزم دينياً وغير مكترثٍ بالإسلام.

٤- كُلُّنا سوف تنتهي حياتنا، ولكن لا بد من جعل أثر إيجابي لنا في هذه الدنيا كما فعل صلاح الدين وفاته بمئات السنين، وسنظل نستذكر كيف خلَّص المسجد الأقصى من براثن الصليبيين، ونأخذ العبرة من صبره أثناء مرضه وغيرها الكثير من صفاته الحسنة والطيبة.

٥- إذا كانت حطين هي الخلاص للمسجد الأقصى بعد عقدين من الاحتلال، أفلا نجد عهد حطين ونحرها من أيدي الصهانية المعتدين المجرمين، ويمكن لحطين أن تتكرر من جديد من خلال جنود وقادة كالأولين، صادقي الإيمان والعقيدة، مطبقين للإسلام وتعاليمه السمحة، وما ذلك على الله ببعيد.

* المراجع

أولاً- المراجع العربية

ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ج ١٠، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام

تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٢م

ابن تغري بردي، يوسف بن عبد الله (ت ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٦، دار الكتب

المصرية، مصر، ١٩٥٦م

ابن خلكان، شمس الدين بن أحمد (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٧، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م

الحموي، ياقوت (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، ج ١، ج ٤، ط ٩، دار صادر، بيروت، ٢٠١٥م

الذهبي، شمس الدين بن محمد (ت ٧٤٨هـ)، نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسين عقيل موسى، دار الأندلس، جدة، ١٩٩١م

السهورودي، يحيى بن حبش، ديوان السهورودي المقتول، تحقيق: كامل الشيبني، مطبعة الرفاه، بغداد، ٢٠٠٥م

ابن شداد، أبو المحاسن بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م

أبو شامة، شهاب الدين بن عبد الرحمن (ت ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ٤، تحقيق: إبراهيم الزبيق، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م

الأصفهاني، محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ)، الفتح القُسي في الفتح القدسي، ط ١، دار المنار، عمان، ٢٠٠٤م

ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ج ١٦، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط ١، دار هجر، القاهرة، ١٩٩٨م

ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ج ١٢، تحقيق: أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبد السار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت

الأحمد، مؤيد محمد، السلطان صلاح الدين الأيوبي، مجلة نهج الإسلام، ع ٧٧/٧٨، تشرين الأول ١٩٩٩ م
ستيفن، و. ب، معركة حطين وتحرير القدس، مجلة المورد، ع ٤٤، ص ٤١

عاشور، فايد، شخصيات إسلامية: صلاح الدين الأيوبي، مجلة التربية، ع ٤٠، يوليو ١٩٨٠ م
قمعون، عاشوري، الدور الصليبي لهيئة الداوية في معركة حطين في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي (١١١٩ - ١١٩٣ م)، مجلة البحوث والدراسات، ع ١١، ٢٠١١ م

محاسنة، محمد حسين سلامة، معركة حطين، المجلة العربية للثقافة، ع ٢٦، شوال ١٩٩٤ م
ثانياً- المراجع الأجنبية

Ibn al Athir, Ali ibn Abi al Karam, died 630 AH. Al Kamil fi al Tarikh, Vol.10, edited by Umar Abd al Salam Tadmuri. Dar al Kitab al Arabi, Beirut, 2012.

Ibn Taghri Bardi, Yusuf ibn Abd Allah, died 874 AH. Al Nujum al Zahira fi Muluk Misr wa al Qahira, Vol. 6. Dar al Kutub al Misriyya, Cairo, 1956.

Ibn Khallikan, Shams al Din ibn Ahmad, died 681 AH. Wafayat al Ayan wa Anba Abna al Zaman, Vol. 7, edited by Ihsan Abbas. Dar Sadir, Beirut, 1978.

ابن واصل، جمال الدين (ت ٦٩٧ هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٣ م

المعري، أحمد بن عبد الله، ديوان اللزوميات، مج ٢، تحقيق: أمين الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت
أحمد، الشامي، صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، ط ١، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩١ م

الأشتر، صالح، معركة حطين ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م، دار الشرق العربي، بيروت، د.ت
أبو خليل، شوقي، حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، ط ١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٥ م

الترباني، جهاد، مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ، ط ٧٢، دار التقوى، القاهرة، ٢٠١٧ م
التكريتي، سليم طه، معركة حطين وتحرير بيت المقدس، مطبعة وزارة الأوقاف - منشورات مجلة الرسالة الإسلامية، بغداد، ١٩٧٩ م

الزركلي، خير الدين بن محمد، ديوان الزركلي، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠ م

الصلابي، علي محمد، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، ط ٢، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٨ م. ٤. صلاح، محسن محمد، الطريق إلى القدس، ط ٥، مركز الزيتونة، بيروت، ٢٠١٤ م

محمود، شفيق جاسر أحمد، المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين في الشام، ط ٢١، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المدينة المنورة، ١٤٠٩ هـ

- Vol. 16, edited by Abd Allah Ibn Abd al Muhsin al Turki, 1st ed. Dar Hajar, Cairo, 1998.
- Ibn Kathir, Ismail ibn Umar, died 774 AH. Al Bidaya wa al Nihaya, Vol. 12, edited by Ahmad Abu Malham et al. Dar al Kutub al Ilmiyya, Beirut, n.d.
- Ibn Wasil, Jamal al Din Muhammad ibn Salim, died 697 AH. Mufarrij al Kurub fi Akhbar Bani Ayyub, Vol. 1, edited by Jamal al Din al Shiyal. Fouad I University Press, Cairo, 1953.
- Al Ma arri, Ahmad ibn Abd Allah. Diwan al Luzumiyyat, Vol. 2, edited by Amin al Khanji. Al Khanji Library, Cairo, n.d.
- Al Shami, Ahmad. Salah al Din and the Crusaders The History of the Ayyubid State, 1st ed. Maktabat al Nahda al Arabiyya, Cairo, 1991.
- Al Ashtar, Salih. The Battle of Hattin 583 AH 1187 AD. Dar al Sharq al Arabi, Beirut, n.d.
- Abu Khalil, Shawqi. Hattin Under the Leadership of Salah al Din al Ayyubi, 1st ed. Dar al Fikr, Damascus, 2005.
- Al Turbani, Jihad. One Hundred Great Figures of the Islamic Nation Who Changed the Course of History, 72nd ed. Dar al Taqwa, Cairo, 2017.
- Al Hamawi, Yaqut, died 626 AH. Mu jam al Buldan, Vols. 1 and 4, 9th ed. Dar Sadir, Beirut, 2015.
- Al Dhahabi, Shams al Din Muhammad ibn Ahmad, died 748 AH. Nuzhat al Fudala Tahdhib Siyar Alam al Nubala, edited by Husayn Aqil Musa. Dar al Andalus, Jeddah, 1991.
- Al Suhrawardi, Yahya ibn Habash. Diwan al Suhrawardi al Maqtul, edited by Kamil al Shaybi. Al Rifaa Press, Baghdad, 2005.
- Ibn Shaddad, Baha al Din Abu al Mahasin, died 632 AH. Al Nawadir al Sultaniyya wa al Mahasin al Yusufiyya. Hindawi Foundation for Education and Culture, Cairo, 2012.
- Abu Shama, Shihab al Din Abd al Rahman ibn Ismail, died 665 AH. Al Rawdatayn fi Akhbar al Dawlatayn al Nuriyya wa al Salahiyya, Vol. 4, edited by Ibrahim al Zaybaq, 1st ed. Muassasat al Risala, Beirut, 1997.
- Al Isfahani, Imad al Din Muhammad ibn Muhammad, died 597 AH. Al Fath al Qussi fi al Fath al Qudsi, 1st ed. Dar al Manar, Amman, 2004.
- Ibn Kathir, Ismail ibn Umar, died 774 AH. Al Bidaya wa al Nihaya,

- Hattin During the Reign of Sultan Salah al Din al Ayyubi 1119 to 1193 AD. Journal of Research and Studies, Issue 11, 2011.
- Mahasina, Muhammad Husayn Salama. The Battle of Hattin. Arab Journal of Culture, Issue 26, Shawwal 1994.
- Al Tikriti, Salim Taha. The Battle of Hattin and the Liberation of Jerusalem. Ministry of Awqaf Press, Baghdad, 1979.
- Al Zirikli, Khayr al Din ibn Mahmud. Diwan al Zirikli, 1st ed. Muassasat al Risala, Beirut, 1980.
- Al Sallabi, Ali Muhammad. Salah al Din al Ayyubi and His Efforts in Eliminating the Fatimid State and Liberating Jerusalem, 2nd ed. Dar al Marifa, Beirut, 2008.
- Salah, Muhsin Muhammad. The Road to Jerusalem, 5th ed. Al Zaytouna Centre, Beirut, 2014.
- Mahmud, Shafiq Jaser Ahmad. The Bahri Mamluks and Their Elimination of the Crusaders in the Levant, 21st ed. Islamic University of Madinah, Madinah, 1409 AH.
- Al Ahmad, Mu id Muhammad. Sultan Salah al Din al Ayyubi. Nahj al Islam Journal, Issues 77 and 78, October 1999.
- Steven, W. B. The Battle of Hattin and the Liberation of Jerusalem. Al Mawrid Journal, Issue 4, p. 413.
- Ashur, Fayid. Islamic Figures Salah al Din al Ayyubi. Al Tarbiya Journal, Issue 40, July 1980.
- Qamun, Ashuri. The Crusader Role of the Templars in the Battle of